# العلوم العربية

## في جامعة برنستون

للدكتور الدوده هبرا هيرجي

### الرازي

دليل ساطع على ان جامعة برنستون تقدر خدمات العرب الجلّى للمدنية كما تقدر افضال بني الشرق على رقيّ الانسانية الثقافية انها خصصت ناحية من رواق كاتدرائيتها البديعة البنيان لعلم من اعلام الحضارة الاسلامية الخالدين هو ابو بكر محمد بن زكريا الرازي ( ٨٥٠ — ٩٣٣ م ). وتعدّ هذه الكاتدرائية اكبر معبد في جامعة اميركية وقد بلغت نفقاتها مليوني دولار . فاذا دخل الزائر الدهليز المؤدي الى صحن هذا المعبد الفخم استوقفت انظاره صورة قائمة بالوان وخطوط رسّام الى اليمين من ممرّ العمارة الامامي يبدو فيها اسم صاحب الصورة — الرازي — بحروف عربية صريحة الدلالة فاذا بذلك العالم يكتب احدى صفحات كتابه المشهور — « الحاوي » — ويستهلّه بـ « بسم الله الرحمن الرحيم » . ونسبة الرازي تشير الى اصله فهو مولود في الريّ بالقرب من طهران عاصمة ايران الحاضرة . كان هذا العلم في الراجح « إعظم اطباء الاسلام واشدّهم ابتكاراً واخصبهم عملاً[1] » . قيل انه استشير في الموقع الذي يجب ان يُبنى فيه البيمارستان الكبير [2] في بغداد وقد اصبح عهد طبابته من بعد . فأمر ان يعلق في كل ناحية من جانبي بغداد شقة لحم . ثم اعتبر الناحية التي لم يفسد فيها اللحم بسرعة فأشار بان يُبنى البيمارستان فيها [3] وهو مستنبط « النيلة » في الجراحة . نسب اليه الفهرست [4] مئة وثلاثة عشر كتاباً وثماني عشرة

(١) ادورد براون ( Edward G. Browne ) « الطب العربي » ( Arabian Medicine ) كامبردج سنة ١٩٢١ ص ٤٠

(٢) أخطأ من ظن ان هذا هو البيمارستان العضدي الذي بناه في شمّ البقعة عضد الدولة البويهي

(٣) ابن أبي أصيبعة « عيون الانباء » حرره مولر القاهرة ١٨٨٤ ج ١ ص ٢٠٩ — ١٠

(٤) النديم « كتاب الفهرست » حرره الوغل ليبزك ١٨٧٢ ص ٢٩٩ — ٣٠٢

رسالة اثنتا عشرة منها في الكيمياء. ومن مؤلفاته الجديرة بالذكر «كتاب الاسرار» الذي اتصل بعد ان تناقله المحررون بالمترجم جرارد الكرموني ( Gerard of Cremona ) (توفى سنة ١١٨٧) المشهور ونقله الى اللاتينية فأصبح احدى مصادر المعرفة الكيمياوية الى ان سادت عليه مصنفات جابر في القرن الرابع عشر. ولقد اشار روجر باكن ( Roger Bacon ) الى هذا الكتاب فأطلق عليه اسم «دو سبرتبس آت كُرپريبس» (De spiritibus et corporibus) وقد أنشأ الرازي في مطلع عمره وهو لا يزال مقيماً في فارس كتاباً في يحلدين للمنصور بن اسحاق السامي صاحب سجستان يعرف بالكتاب المنصوري نسبة الى ولي نعمته هذا ثم نقل هذا الاثر الى اللاتينية ايضاً فصدر في ميلان نحو السنة الثامنين من القرن الخامس عشر بعنوان «ليبر المنسورس» ( Liber Almansoris ) وقد ترجم بعضهُ اخيراً الى الفرنسية والالمانية. اما رسائله فمن اظهرها رسالة «الجدري والحصبة»[1] أقدم ما صنف في هذا الموضوع وقد صدق من قال «انها زينة الادب الطبي عند العرب» ورد فيها اول وصف كليني للجدري. وقد نقلت الى اللاتينية سنة ١٥٦٥ في البندقية والى عدة لغات حديثة فذاع بها صيت الرازي في الخافقين واشتهر في اقطار الغرب اشتهاره في اقطار الاسلام نابغة في الطبّ ومفكراً ومبدعاً. اما احقّ تآليفه بالعناية اي «كتاب الحاوي» فاول من نقله الى اللاتينية الطبيب الصقلي الاسرائيلي المشهور فرج بن سالم وذلك سنة ١٢٧٩ بامر كارل الاول تحت عنوان «كونتينس» ( Continens ) ثم طبع مراراً سنة ١٤٠٦ فما بعد الى ان صدرت طبعتهُ الخامسة سنة ١٥٤٢ في البندقية. والكتاب حسبما يشعر عنوانه موسوعة جامعة للمعارف الطبية بل موجز علوم العرب الطبية وما اخذوه عن اليونان والفرس واهل الهند مع مبتكراتهم الخاصة. وانما طبعت هذه المؤلفات حين كان فن الطباعة في الطفولة فاستحالت وسيلة فعّالة لاعلاء مقام الرازي بين علماء الغرب اللاتيني وها جامعة برلستون اليوم تستمدّ الوحي من رسمه

وينظر زائر المعبد بسرورٍ فيرى صورة القديس يوحنا الدمشقي احد الكبار الذين توسّطوا بين افكار الشعوب العربية اللسان والنزعات الفرية اليونانية وهو الملقّب بالذهبي اللسان اسوة بسيه الاسبق الانطاكي المعروف بفم الذهب. وليس القديس يوحنا باليوناني. ولو كتب باليونانية بل كان سوريًّا اراميَّ اللسان وكان يحسن العربية واليونانية معاً. جدهُ منصور ابن سَرْجُون صاحب بيت المال بدمشق خلال الفتح العربي. واطاً اسقف دمشق على تسليم المدينة للمسلمين فأبقى له المسلمون منصبهُ وخلفه فيه إبنهُ والد هذا القدّيس. أما صاحبنا فقد كان

(١) نشرها الدكتور كرنيليوس فانديك بيروت ١٨٦٦ ووسمها برسالة في مرض الجدري والحصبة

في شبابه نديم يزيد بن معاوية ثم نسج على منوال أبيه وجدّه فتسلم زمام المال في الدولة العربية الفتية ولم يزل عليها حتى خلافة هشام (٧٢٤ — ٤٣) فاعتزل السياسة وحوّل وجههُ شطر الزهد والتعبد نازلاً دير القدّيس سابا بالقرب من بيت المقدس حيثُ قبضَ حوالي ٨٤٨ . وغالب الظنّ أن يوحنا ناقش في مسائل الدين كثيراً وذلك في مجلس الخليفة . وليس الكشف عن تأثيره في تكوين المدرسة القدّيسية من صعاب الامور . والواقع أنهُ آخر لاهوتي عظيم انجبتهُ كنيسة الروم الشرقية . أما في الأدب الكنسي فقد أصبحت الاناشيد التي نظمها (وبعضها لا يزال الانجيليون يترنّمون بهِ الى اليوم) أجلّ ما ارتقى اليهِ شعراء الكنيسة من ابداع وجمال . اذاً فالقدّيس يوحنا مفخرة من مفاخر الكنيسة التي ازدهرت تحت ظلّ الخلافة لما تحلّى بهِ من النضوج كرئيس ولاهوتيّ وخطيب وكاتب جدليّ

## الشرقيات في اميركا

لم يبق ريب في أن النزعة العلمية في اميركا اليوم تنذر بدخول العالم في شوط جديد تكون الولايات المتحدة فيه زعيمة الحريّة الفكريّة ورسول التقدّم والانتاج . ويلاحظ أن الاقبال عظيم في هذه البلاد على التعمق في سالف الحضارات واهتمام العلماء بآيات المجد الشرقي يزداد حولاً فحولاً . ولا نغالي اذا قلنا قسطاً من هذا النشاط العلمي في المشرقيات الى التعزيز الذي فازت بهِ اللغة العربية بوساطة أولياء الامر في جامعة برنستون التي من حقها المباهاة بتاريخ حافل بعظيم المساعي في سبيل احياء التراث الشرقي، وبالدائرة الشرقية فيها اصبحت مركزاً للعلوم الاسلامية العربية يؤمّهُ الطلاّب على اختلاف الاجناس

والحقّ أن علماء اميركا ومن يستعينون بهم من الاجانب أوّل من وضع علم الآثريات على اساس خدمة الحقيقة المجرّدة . وهم منظمو أعمال الحفر وواضعو اصولها العلمية بل هم الذين نهضوا بعلم الآثريات فأخرجوه من مقامه الثانوي جاعلين ما كان واسطة الى فهم التاريخ ليس الاّ غاية تصوى وغنماً ذا أصول . ومن أساطينهم اللامعين برستد ( Breasted ) وجورج ريسنر ( Reisner ) وهلبرخت ( Hilprecht ) وبانكس ( Banks ) وسيزر ( Speiser ) وكيارا ( Chiera ) وفرانكفرت ( Frankfort ) ولايون ( Leon ) وجاستروو ( Jastrow ) وبارتن ( Barton ) ولوكنبل ( Luckenbill ) والبريت ( Albright ) . وبين المتصرفين الى هذا العلم طبقة نشطت بعد الحرب فوجّهت همّتها أولاً نحو التراثة السلية في المواقع التاريخية فكان واحدها يقضي السنين في آسية الصغرى أو مصر أو سورية وهلمّ جرّا . ثم عكفت بعدئذ على الدراسة النظرية اذ عاد

أفرادها لاتمام تحصيل الاسس العلمية المتوفرة في بطون الكتب والاخذ عن العلماء في مراكز العلم (١)

دار العلوم العربية صيف ١٩٣٥

والعلماء الاميركيون المختصون بتاريخ العصور الوسطى هم بحاجة الى تعلم لغة الضاد لأن العرب كانوا أصحاب العلم وحملة العرفان في القرون المظلمة بواسطتهم تسنى لمدنية اليونان والرومان سبيل الاتصال بأمم أوربا . لذن فادراك اسرار لغتهم واستطلاع مكنوناتها حتم على دارسي تلك العصور . وكذلك قل في من يبتغي الخوض في تاريخ السريانيين والاشوريين ومن حذا حذوهم . يهون عليه الامر اذا ما رسخت قدمه في ثقافة العرب وحضارتهم . وليس خيراً من اللغة العربية مفتاحاً لمنطلق الحياة القديمة في الشرق الادنى ولادراك النظم الدينية والاجتماعية في العصور الباكرة . الى ذلك ما للبلدان العربية من الخطورة في العصر الحاضر . أو ليس لموقعها الجغرافي شأن في تسيير السياسة العالمية جعل الدول العظمى تطلق على أحوال هذه البلدان اسم « المسألة الشرقية » ؟ هذه وجوه نقتصر عليها في الاشارة الى ما للعرب من اثر بعيد النور في كل قطر فكم بالاحرى في أميركا بلاد النور وملاذ الحرية والعرفان ؟ وقد اتضح للجنة الجمعيات العلمية الاميركية ما نلوح به من آراء في مكانة العلوم العربية والاسلامية فعقدت النية على فتح دار لهذه العلوم صيفاً ، كيما يتمكن العلماء من الوقوف على معارف الشرق . ورأت بعد طويل الدرس ان خير معهد تعتمد عليه لابراز خطتها هذه انما هو جامعة برنستون . فجاء هذا الاختيار قراراً بتبوئ برنستون في هذه الناحية العلمية — هكذا خرجت دار العلوم العربية والاسلامية الى حيز الوجود صيف ١٩٣٥ باشراف لجنة الجمعيات العلمية ، ارقى مؤسسة اميركية للتشجيع الابحاث العالية في ثقافات الانسان ، ماضيةً وحاضرةً . ولكن دار العلوم لم يتفسح المجال فيها الا لنخبة من ذوي الكفاءة والجدارة ، والسواد الاعظم من طلابها انما كانوا من حاملي رتبة استاذ في العلوم وعدد منهم يحمل رتبة دكتور في الفلسفة منهم الاختصاصيون ومديرو المتاحف وأصحاب التآليف النفيسة والعلماء والبحاثون ومثلو الجامعات الكبرى رجالاً ونساءً (٢)

وليس الطلاب الذين ينتمون الى هذه الدائرة الشرقية من الاميركيين وحدهم بل ان

(١) من هؤلاء الناشطين المبعوث تشارد ستار ( Starr ) أحد طلبة الدائرة الشرقية في جامعة برنستون الذي قضى أعواماً يحفر بأنحاء سيناء وتركيا وجزيرة وان والتركستان الصينية والعراق حيث كشف في اطلال « النوزي » بجوار كركوك عن أقدم خريطة مرسومة في التاريخ المدون يرجع عهدها الى سنة ٢٥٠٠ ق . م . انظر كتابه « نوزي » ( Nuzi ) ج ٢ مطبعة جامعة هارفرد في الولايات المتحدة سنة ١٩٣٧

(٢) راجع مقالي في جريدة « الهدى » نيويورك ١٨ آب سنة ١٩٣٥

للمعهد زعامة معترف بها في شتى الاقطار يقصده الطلاب من انحاء الشرق والغرب ، من الصين وبلدان اوربا ، ومن مصر والعراق وسورية وايران وتركية . ومن خريجي هذه الدائرة فئة تشغل مناصب هامة . منهم اختصاصي في علم الآثريات يقيم الآن في ايران حيث يتردد على اطلال مدينة الري . وآخر استاذ في كلية اسيوط بمصر وسواهما عضو في عمدة كلية الآداب بجامعة بيروت الاميركية وهو من اساتذة التاريخ الشرقي فيها ولهُ ابحاث سديدة . وقد منحت عمدة هذه الجامعة احد خريجي الدائرة الشرقية لقب مدرس بعد ان انتدبتهُ الجمعية الاميركية للابحاث الفلسفية ليترجم « كتاب احياء علوم الدين » الى اللغة الانكليزية وخريج آخر قدم رسالته فنال الدكتوراه منذ سنة وهي مبنية على دراسة التصوف والعام النظر في مذهب الاشراق استناداً الى المخطوطات وابحاث المستشرقين. وهو يُعيدّ الآن الطبعة العربية لكتاب «تاريخ العرب» الذي سيأتي الكلام فيه

اما مدير هذه الحركة العلمية العربية فهو الاستاذ الدكتور فيليب حتي . لولاه ما عرفت الولايات المتحدة هذا الاتجاه الجديد الذي نعرض له ولا وجد الطلاب العرب القادمون الى هذه البلاد مرشداً يمهد لهم سبل الدراسة في الجامعات الاميركية . وهو احد محرري الطبعة الجديدة لقاموس وبستر سنة ١٩٣٤ ، ومدير دار العلوم العربية الاسلامية التي ذكرناها وعضو الجمعيات الاميركية الجغرافية والتاريخية واللغوية والمجمع العلمي العربي بدمشق والجمعية الاميركية الشرقية . نذكر من مؤلفاته ترجمة « فتوح البلدان » للبلاذري ، للانكليزية سنة ١٩١٦ و « الفتات السامية المحكية في سورية وفلسطين » سنة ١٩٢٢ و « السوريون في اميركا » بالانكليزية سنة ١٩٢٩ و « سورية والسوريون » سنة ١٩٣٦ و « اسامة بن منقذ » ترجمة انكليزية سنة ١٩٢٩ وطبعة محررة سنة ١٩٣٠ و « تاريخ العرب » بالانكليزية سنة ١٩٣٧ . عدا مقالات علمية بالانكليزية في دائرة معارف العلوم الاجتماعية ورسائل اخرى كثيرة في امهات المجلات الشرقية والغربية [1] . ويستحق البحث في كتاب « تاريخ العرب » اضاف اضعاف التسع المقرر لهذه الرسالة . وأول عهد الكاتب بهذا المؤلف الفريد كان يوم جاء برنستون طالباً . فعند حضوره فصل « حضارة العرب » رأى الاستاذ يطلع تلاميذه على ما وضعه في العرب من سفر شامل — زبدة ابحاثه في السنين الطوال التي قضاها في كولومبيا وجامعة بيروت الاميركية وفي برنستون — نحو الف وخمسمئة صفحة مطبوعة على الآلة الكاتبة فيها الفكرة العلمية بأطلى عبارة مرفقة بالشروح والمراجع الجامعة عربية وانكليزية والمانية وافرنسية

(١) راجع مادة ( Hitti ) « حتي » في ( Who's Who ) « هوز هو » (كتاب مشاهير اميركا) لسنة ١٩٣٦ — ٣٧

وايطالية واسبانية ويونانية ولاتينية وعبرانية وسواها . فاستولى عليّ العجب لما شاهدته في تلك « المخطوطة » من ضروب الدقة والايجاز والتنسيق العلمي ، فالجملة الواحدة تمثل لك تعب الاسبوع والاسبوعين والحاشية يلتقي عندها تصفح المؤلف لمكتبة علوم فيها آلاف المجلدات واشتقاقات لغوية اتى العالم اشهراً في نقبها تُظهر — مثلاً — كيف ان الكلمة الانكليزية ( Soda ) « صودا » ليست اصلاً الاّ « صداع » العربية . او كيف ان لفظة ( Candy ) « كاندي » التي يطلقها متكلمو الانكليزية على السكر الذي يعطى للاولاد هي « قَنْدَة » او « قَنْدي » العربية ماخوذة من « قند » الفارسية . ونحو ذلك من الكلمات المتعلقة بالحياة في نواحيها العملية والعلمية . وسرد للحوادث بأسلوب رائق رشيق تجد المؤلف فيه ينشد المظاهر الثقافية لا مجرد التدليل بأسماء الابطال وايراد المعارك الحربية وإعطائك الارقام والتواريخ قال احد نقاد الكتاب في جريدة « هرلد تريبيون » [1] الكبرى : « الاستاذ حتّي سوريّ الاصل لذلك فهو بحكم الطبع غير ميال الى التقلل من ايضاح أثر الاسلام على الغرب . الاّ ان هذه الرغبة فيه لم تفقده ( في كتابه ) الى المحاباة والانحياز » . فهذا « كتاب فاخر اشبه شيء بنصب تاريخيّ منيف » . وجاء في مقال انتقادي للاستاذ حبيب كاتبة نشرته جريدة « نيويورك تيمس » [2] « ولقد رحّب المستشرقون بكتاب الاستاذ حتّي واعترفوا به مرجعاً بليغاً يفوق جميع ماصنّف قبلاً في هذا الموضوع . . . فهو سفر جليل يستند اليه من مزاياه الصدق وسداد الرأي والابتعاد عن التعصّب والهوى » . وفي مجلة « فورتينتلي رفيو » [3] البريطانية ان الاستاذ حتّي اكفأ من يسطر تاريخ ذلك الشعب الخالد — وريث إمجاد بابل وكلدا والحثيين والفينيقيين — وهو بخلاف هذه الشعوب الاخرى التي ورثها — لايزال له شأن في توجيه مجاري العصر الحاضر . ومما يلذ للقارئ معرفته ان الدائرة الشرقية قررت هذا العام بالاشتراك مع دائرة الآثار في الجامعة ومعهد الدراسات العليا في برنستون أن تمنح الطلبة المتأهلين « الدكتوراة في الآثار الاسلامية » وهي رتبة وحيدة من نوعها في جامعات الولايات المتحدة . ومما سهل ذلك وجود الاستاذ هرتسفلد ( Herzfeld ) الشهير احد اساتذة برلين سابقاً ومتولي حفريات سامرا أستاذاً مستجداً في معهد الدراسات العليا . وكاتب هذه السطور هو احد المشتغلين في هذا المعهد والمناهمين مع الاستاذ هرتسفلد في دروسه التقنية . أما دائرة الآثار في الجامعة فهي في طليعة الدوائر من نوعها في الجامعات وهي اليوم تعنى بحفر الآثار في إنطاكية

(١) الصادرة في نيويورك ١٨ تموز ( يوليو ) سنة ١٩٣٧
(٢) ١١ تموز ( يوليو ) سنة ١٩٣٨
(٣) لندن نيسان ( يونيو ) ١٩٣٧

## دراسة الغزالي

لا بد للباحث في آثار المفكرين المسلمين من الشعور بما للغزّالي ( توفي ١١١١ م ) من مكانة وما لكتبه من قيمة . وقد يمكن حصر تأثير الغزّالي في أبواب أربعة نوردها اظهاراً للسبب الذي جعل الدائرة العربية في هذا المهد تدرجهُ في عداد العلماء اللامعين الذين تجب دراستهم ونقل مؤلفاتهم الى الانكليزية . أولاً هدى الغزالي ابناء زمانه من الابحاث الكلامية ، وهي تدور حول العقائد والشروح ، الى تماس ناجز بكلام الله عزّ وجلّ ، كما هداهم الى العناية بالحديث حتى قيل صواباً ان ما جرى في عالم النصرانية وشاهدتهُ أوربا عندما تكسرت وثاق اللاهوتيين جرى في عالم الفكر الاسلامي على يد « حجة الاسلام » . ثانياً أتيح للغزّالي بما ادخله إلى الاجتماع والافهام أن يعيد الخوف والتقوى الى النفوس ففي « المنقذ من الضلال » وغيره من المؤلفات اقاض في ابراز الحاجة الى الخوف وسيلة لجذب القلوب الى الله . ثالثاً بواسطته قيض للتصوف أن يتغلغل في صميم النفوس . رابعاً قرّب الغزّالي الفلسفة وانقذه الى أذهان العامة فالآراء الشائعة قبل يومه انما كانت وقفاً على طبقة خاصة من الناس لها لغة شاذة يعافها القوم حتى أن المشتغلين بها إنما اضطروا نفوسهم على تعلم الفاظها الوعرة واسرارها العويصة . اما الفرد العامي وأن كان يحسن لغته العربية فلم يستطع الى إدراك تلك الافكار سبيلاً لاسيما وهي مستقاة من اليونانية عن طريق النصوص السريانية . اراد الغزالي ان يبيد هذه العقبة الكؤود ولقد تلاحظ رغبتهُ هذه في كتاب « تهافت الفلاسفة » وهو موضوع ليس للعلماء فحسب بل ولطبقات العامة ايضاً ألحّ على القراء فيه بان آراء الفلاسفة وحججهم واخطاءهم يجب ان تدركها الجماهير

ولاشبهة في ان محتوى هذه النواحي التي ينطوي عليها عمل الغزالي وخدمته لجيله وللاجيال اللاحقة انما تتضمنه المادة الاولى والثانية مما عددناه . فعظمته الحقيقية تجسمها هدايته الاسلام الى الحقائق الراسخة وازالة التشور عن عيون العامة مع حثهم على الافصاح عن شعورهم الباطني الروحاني . وهو لم يكن في كل هذا من عداد المبتكرين الرواد ولا عالماً ابتدع نظرية جديدة بل رجلاً ذا شخصية جبارة دخل الجهاد فسلك طريقاً مطروقة فثابت حتى قلبها سلطنة رحبة[1]

أما مذهبيّة آثاره التي تمتلئ هذه الدائرة بها فهي بلا خلاف كتابهُ المعروف باحياء علوم الدين . « والاحياء » في نظر حاجي خليفة[2] « أجل كتب المواعظ واعظمها حتى قيل فيه

(١) راجع ماكدونالد ( Macdonald ) « موسلم تيولوجي جورسبرودنس اند كنستيوشنل ثيوري» ( Muslim Theology Jurisprudence and Constitutional Theory. ) نيويورك ١٩٠٣ ص ٢٣٩ — ٤٠

(٢) « كشف الظنون » سرره فلوغل ( Flügel ) سنة ١٨٣٥ ج ١ ص ١٨٠

لو ذهبت كتب الإسلام وبقي الاحياء لاغنى عمّا ذهب » . وهو مرتب على أربعة اقسام ربع العبادات وربع العادات وربع المهلكات وربع المنجيات. وقد شبّه صاحب الاحياء توما الاكويني ( Thomas Aquinas ) وهذا الاخير متأثر بمكتوبات الغزالي التي أثرت ايضاً في آراء بسكال (توفي ١٦٦٢ م) كما أثرت في اصحاب المدرسة الكلامية النصرانية واليهودية. وقد اكتسب «الاحياء» عناية العلماء من عرب واجانب فتوالوا عليه الانظار حتى دعي مؤلفه «القدّيس المبجّل في العالم الاسلامي » . وليس للاحياء نص محرّر تحريراً علميًّا بل هو في طبعة لا تليق بقدره صدرت بمصر سنة ١٣٣٤ هـ ذات أربعة اجزاء . ويرجى الآن اخراج نصّ علمي مبني على معارضة مخطوطات متعددة ترجع الى القرن الرابع عشر والقرن الخامس عشر وهي من ذخائر جامعة برنستون . ويُرجّى ايضاً نقل هذا الاثر النفيس الى اللغة الانكليزية من بعد إقامة النصّ العربي العلمي وتصدير ذلك بمقدمة تتناول حياة الغزالي ومؤلفاته وتأثيره في نشأة الفكر الغربي[1]

## المخطوطات

لاحد أمناء الجامعة المستر روبرت غارت ( Garrett ) ولع باقتناء المخطوطات العربية . ولما كان مقيماً في مدينة بلطيمور على بعد نحو ثلاث ساعات من برنستون بالقطار السريع فقد اودع مجموعته الثمينة خزائن الجامعة وهي اكبر المجموعات العربية في الولايات المتحدة أعدّ لها فهرس كبير الحجم قبل سنتين وهو الآن تحت الطبع [2] في بيروت . ولا بسنا الالمام بما تشمله هذه المجموعة من ذخائر سيكون لها خير اثر في توجيه افكار المستشرقين الى سيادة الفكر العربي خلال العصور الوسطى ومساهمة اصحابه في ترويج بضاعة العلم والفلسفة والادب والتاريخ وجميع ما تفذت اليه قرائحهم . الا انهُ يجدر بنا الرمز الى ان هذه المجموعة من المخطوطات هي في الحقيقة مؤلفة من مجموعات مختلفة تخيّرها افراد من ارباب العلم ثم آلت الى ملك هذا المثري الاميركي . فيها طائفة كبيرة كانت ملك الحبّاع برل (Beal) بهولاندة ابتاعها باقتراح هوتسما ( Houtsma ) المستشرق الهولندي من فاضل من المدينة المنوّرة اسمهُ امين بن حسن الحلواني ثم بيعت لاخي المستر غارت الذي كان سفيراً للولايات المتحدة في هولاندة وايطاليا . وطائفة اخرى هي في الاصل ملك الحلواني ايضاً اشتراها صاحبنا الاميركي سنة ١٩٠٤ . واتفقت اقامة العلامة انّولّمان Enno Littmann في برنستون فوضع لها فهرساً طبع في ليبزك سنة ١٩٠٤ وفي عداد الطائفتين عدد من المخطوطات التركية والفارسية والسريانية وغيرها . والطائفة الثالثة

(١) يقوم بذلك الدكتور فيليب امين فارس خريج الدائرة الشرقية في برنستون واحد اعضاء هيئتها الآن.
(٢) وقف على تحريره العلامة حتي والدكتور فارس والدكتور بطرس عبد الملك

اباعها المستر غارت سنة ١٩٢٥ بناء على اقتراح الدكتور حتي من خزانة المرحوم مراد بك البارودي الذي كان له دراية في انتقاء المخطوطات المفيدة الثمينة . وفي تلك السنة اشترى هذا النبيل مخطوطات أخرى من السلامة ودجري ( Wiggery ) الانكليزي الاستاذ بجامعة كامبردج في بلاد الانكليز

والطائفة الخامسة والاخيرة هي مخطوطات متفرّقة ابتيعت في متفاوت الامكنة والازمنة تتضمّن بعض النصوص البديعة النادرة من نسخ القرآن والمقتطفات الكوفية

ولكن قيمة المجموعة لا تنحصر في وفرة عددها بل في ما لمحتوياتها من القدر الجليل . ففيها نماذج تمثل جميع البلدان الاسلامية وأنواع الخط العربي والعلوم التي نبغ العرب فيها في عصور ازدهارهم . والمؤلفون مختلفون منهم مسلمون من الاندلس وعلماء من البربر ومصريون وشاميون وأعراب من الجزيرة وغيرهم هؤلاء من الاعاجم والترك وأهل ملقا تجمع أكثرهم جامعة الاسلام ولغة القرآن . على ان نزراً قليلاً من المخطوطات لكتّاب نصارى ودروز لبنانيين . وحسبك ان بين الآثار النادرة مخطوطات ألفها أولئك النطاحل الذين تصدروا الفكر الاسلامي وسهروا العلم بآيات عجز عنها علماء عصرهم كابن سينا وابن رشد والفارابي والرازي والغزالي . أما أزمنة تصنيف المخطوطات فيتباين من القرن الثامن الى القرن التاسع عشر . وأمكنة تأليفها متنورة بين الاندلس ومراكش وبرما وبخارا على شواطىء الفولغا في روسيا . وبعضها بخط المؤلفين أنفسهم والبعض الآخر منقطع النظير لم يُسمع لعالم ان نشره أو وصفهُ . ومنها ما هو نادر جدًّا عظيم الثمن

***

من المحال التصدي لكتب النفيسة كلها في هذه المجموعة لذلك نقتصر على الكلام في بضعة منها . ففي حلية العلوم هنالك ترجمة كتب جالينوس الواسعة في الطب لحنين بن اسحاق النسطوري المتوفى سنة ٨٧٣ . ورسالة طبية أخرى للرازي المذكور في صدر هذا المقال . ودائرة معارف طبية لعلي المجوسي المتوفى سنة ٩٩٤ كان قد وضعها لعضد الدولة صرفت بالملكي وهي مفسوحة على ما نظنّ في القرن السادس عشر . وكتاب في الفلك للفرغاني ( الذي بنى مقياساً لفيضان النيل والمتوفى بعد سنة ٨٦١ ) وهو أثر جليل نقل الى العبرانية واللاتينية في العصور الوسطى ثم انتشر في الغرب فكان أشهر المؤلفات الاسلامية في الفلك . وفي المجموعة ايضاً نسخة من كتاب الشفاء لابن سينا المتوفى سنة ١٠٣٧ يرجع نسخها الى القرن السادس عشر أيضاً.

ومخطوطة فريدة للآمدي ( توفي ١٢٣٣ ) في المنطق والطبيعيات وما وراء الطبيعة عول فيها المؤلف على مصنفات ارسطو وافلاطون وفيثاغورس واهل النسخة عملت في حياة المؤلف . ومن كتب الفلسفة ذات القدر نسخة غير كاملة من رسائل اخوان الصفا

***

## الكتب المترى نظرها الى الانكليزية

اللغة الانكليزية في هذا العصر مقام شامخ فهي واسطة التفاهم في جانب عظيم من المعمورة يفهمها معظم المثقفين من اهل هذا الزمان . وقد يقع اللغة العربية نفعاً بيناً احتكاكها بهذه اللغة الحديثة كما ان اصدار بدائع الفرائد العربية في ترجمات انكليزية لمن احرى الاعمال بالتشجيع لما يدر من خير معنوي على العاملين في انهاض العربية واظهار المنتجات الشرقية الاسلامية التي اخنى عليها الدهر . هذا وان ذخائر التاريخ والفلسفة والادب اليونانية واللاتينية قد نقل اكثرها الى اللغة الانكليزية فصارت معروفة عند المثقفين في بريطانيا وتوابعها وفي الولايات المتحدة . لذا كان حقًّا ان ينقل من العربية افضل ما فيها من تحف تراثها القومي تعميماً لفائدته وليكون في متناول العلماء غير القادرين على تعلم لغة الضاد وسواهم ممن يريد الوقوف على اسمى ما حبا به العرب العالم في اوج عزهم . وهذا بينه ما وجه عناية الدائرة العربية الى تهيئة مشروع واسع النطاق يشترك فيه نخبة من العلماء العرب والمستعربين يرمي الى نشر المؤلفات العربية الخالدة في حلة انكليزية علمية . ومما يساعد على ابراز هذه الفكرة وجود مطبعة عربية « ليتوغرب » تابعة لمطبعة الجامعة وهي الوحيدة من نوعها ، على ان المشروع بكامله لا يتم الا بعد عشرات السنين وادخار المال الكافي لهُ

ونظرة الى بعض هذه الآثار المتوي ترجمتها كافية لتسويغ هذا المشروع العلمي الجسيم . نذكر منها على سبيل المثال « مفاتيح العلوم » للخوارزمي ( زعما في أواخر القرن العاشر للميلاد ) أقدم موسوعة علمية في الاسلام لمؤلف عالي الكعب فارسي الجنس قد صنع باسلوب سليم منسجم وهو مصنف ضروري لدراسة تاريخ العلم بظهير المؤثرات اليونانية والسريانية والفارسية والهندية في تقدم الفكر الاسلامي . ومنها « نزهة المشتاق في اختراق الآفاق » المعروف أيضاً باسم الكتاب « الروجاري » نسبة الى روجار الثاني ملك صقلية النورمندي للادريسي ( توفي ١١٦٦ ) وهو اغزر كتب الجغرافية التي فاضت بها العصور الوسطى مادة فيه خلاصة مؤلفات بطليوس والمسعودي . ومن هذه التحف أيضاً « كتاب الفخري » لابن الطقطقي (توفي

بعد ١٣٠٢ م ) وهو ابدع ما كتب في تاريخ السياسة الاسلامية يطالع القارىء في تضعيفاته تفاصيل الحياة الاجتماعية على زمن الخلافة مع أمثلة رواها الكاتب عن أمراء المؤمنين وأهل خاصتهم إيضاحاً لخواطره ونظرياته في أصول سياسة الدول

ومنها « سيرة رسول الله » لابن هشام اقدم من ترجم للنبي العربي واوثق . ومنها مقدمة ابن خلدون اول من تبسط في مباحث علم الاجتماع وفي المقدمة ابكر محاولة لتفسير التاريخ تفسيراً اقتصادياً

وابن خلدون محدث نظرية النشوء التاريخي بناها على مظاهر الحوادث كما هي وقتئذ سياتها كما جرت او كانت تجري امام عينه . أما القوانين التي تركزت عليها نظريته فكفاها وحاجة امة لم يظهر عليها احد من علماء العصر الحاضر . وبعد فلا عجب ان يكون اتباعه في عالم الفكر قادة مؤرخي اوربا ابان العصور الوسطى . ومنها « العقد الفريد » لابن عبد ربه ( توفي ٩٤٠ م ) وهو خزانة الشعر والغناء والموسيقى في اللغة العربية ومرآة تصف حياة العرب من سكان شمالي افريقية بما ينطوي عليه من ادب واجتماع . والى ذلك ففيه حقائق تاريخية ولمحات تعين القارىء على استيعاب الاحوال السياسية والعمرانية في الاندلس . ومن المتاحف المقررة للترجمة « طوالع الانوار » للبيضاوي المتوفى سنة ١٢٨٦ م اوسع سفر فقهي شامل في علم الكلام من وضع العالم الكبير صاحب تفسير القرآن . ومنها ايضاً « نفح الطيب » للمقري المتوفى سنة ١٦٣٢ وهو مؤلف يعد مرجعاً لعلم تاريخ الاندلس العربي من الناحية الادبية وفيه أيضاً مباحث تتناول قيام الدول الاسلامية وثقافتها في أوربا منذ باكر عصور الفتح حوالي ( ٧٧١ م ) الى سقوط غرناطة ( سنة ١٤٩٣ م )

وان نجاح هذا المشروع الطبي الخطير لما يعود بجزيل الفائدة على جميع العلماء الذين لهم عناية بكنوز العرب لذلك والاوساط العلمية ترقبه بعين الامل والرجاء وتقيله كل مؤازرة ومناصرة سواء في اميركا وفي سائر ربوع العالم الحديث

***

وخلاصة المقال ان جامعة برلستون بفضل عمدتها ومجموعة مخطوطاتها ومطبعتها والمشاريع العلمية التي تنوي تحقيقها قد أصبحت بلا مبالغة اهم مركز للدراسة العربية في العالم الجديد ومن أهم المراكز في العالم كله

— نيوجرسي : جامعة برلستون : معهد الدراسات العليا